العرب
الخميس 2020/03/19
السنة 42 العدد 11651

الثقافة تتقهقر في مواجهة كورونا.. وتقرع ناقوس الخطر

القراءة في أزمنة الوباء لن تقتصر على القصص والروايات والاشعار

الآن وقد عمّ الخطر على الجميع، وباتت أغلب الشعوب المصابة بالكورونا خاضعة لرقابة القوة العامة، التي فرضت حظر التجول وأرغمت الناس على لزوم بيوتهم لا يغادرونها إلا للضرورة القصوى، صارت أوقات الفراغ لديهم بحجم الكون، وهنا تكمن المشكلة. كيف سيزجي كل فرد وقت فراغه، وبماذا سيشغله؟

أبو بكر العيادي
كاتب تونسي

لا حديث اليوم في شتى أصقاع المعمورة إلا عن الكورونا، ولكنه حديث يختلف فحواه، وسبل التصدي له من مكان إلى آخر بحسب طبيعة الشعوب ومستوى تقدمها. فقد قابلناه في بداية ظهوره، نحن العرب، كسوط عذاب صبّه الله على الصينيين لاضطهادهم مسلمي الإيغور.

ولما انتقل إلى أوروبا واصلنا تفسير ذلك الوباء الصيني المتنقل بكونه نقمة من الله على الكفار والعلمانيين. وحتى عندما تحول الوباء إلى جائحة عالمية، بقينا محافظين على تلك المرجعية الميتافيزيقية، ورفضنا توخي الاحتياط اللازم، بل إن بعضنا لا يزال يتحدى قوانين الحجر ويصر على صلاة الجماعة.

> المدرسة لم تعد منطلقا لتكوين ثقافي يساعد التلميذ بل باتت منصة للحصول على وظيفة أو مهنة

أما في السّرّ فهم يدعون الله أن يهدي "الكفرة" إلى إيجاد ترياق لهذا الفايروس الفتّاك، وفي الأقل لقاح لتوقّي شروره، لأنّ هذا الغرب "الكافر" يؤمن بالعلم ويجلّ العلماء، ويسعى على قدم وساق لإيجاد دواء ينجي العالم بأسره، دون استثناء.

وظيفة التعليم

في هذه الأثناء، تناقلت مواقع التواصل الاجتماعي خبرين، أحدهما حقيقي، والثاني طرفة، وإن كانت لا تنأى كثيرا عن الواقع. يقول الأول إن الشعوب البريطانية أقبلت على الأكشاك والمكتبات، تشتري محتوياتها من الكتب والمجلات والدوريات بنهم، حتى أفرغتها.

وأما الثاني فيقول إن شعب تونس هبّ إلى الأسواق والمحلات التجارية يفرغها من الثوم والدقيق والمعكرونة وسائر المواد الغذائية... وشتان بين شعب سوف يشغل أوقاته بالقراءة، وشعب لا همّ له سوى التفكير في ما يملأ بطنه. صحيح أن ثمة من العرب من وجد في الحجر الصحي فرصة لقراءة ما تراكم في مكتبته من مؤلفات، ولكن نسبتهم ضعيفة قياسا بالسواد الأعظم الذي لا يقرأ، لأنه لم يعوّد نفسه على المطالعة، ولأن المنظومة التعليمية فشلت في ترغيبه في القراءة.

والقراءة التي نعنيها لا تقتصر على القصص والروايات والأشعار، على أهميتها، وإنما تلك التي تواكب عصرها، وتأخذ من كل شيء بطرف، وحتى أكثر من طرف بحسب ميول كل شخص وقدراته، لكي يحوز الفرد ثقافة عامة تؤهله لفهم واقعه ومجتمعه والعالم ومستجداته، دون أن يحصر نفسه في مجال معين، كالفن أو الرياضة، أو السياسة... أي أن يكون مواطنا بأتم ما في الكلمة من معنى.

لقد أهملت شتى الأنظمة التربوية في العالم العربي مهمتها الأولى، أي تكوين مواطنين ومواطنات يحملون ثقافة عامة متينة، وآثرت إعداد التلاميذ إعدادا أقرب إلى التكوين المهني، بغرض تهيئتهم لوظيفة أو عمل إثر نهاية دراستهم، بموافقة ضمنية من أولياء يدفعون كل مرتخَص وغال لأجل حصول أبنائهم على شهادة تضمن لهم المركز الاجتماعي اللائق.

وكان ذلك منطقيا في بداية الاستقلال، حيث احتاجت أغلب الأقطار إلى من ينهض بدولة ناشئة، وإدارة شؤونها، وتسيير منشآتها، لوضعها على المسار التنموي الصحيح. ولكن مع تفاقم سوق الشغل، واستشراء البطالة، ظهر تنافس غير شريف في أغلب الأحيان للحصول على وظيفة بأي ثمن.

وبغض النظر عن السبل التي يتوصل بعضهم بواسطتها إلى الشهائد العلمية، فإن المدرسة في عمومها لم تعد منطلقا لتكوين ثقافي يساعد التلميذ على معرفة جذوره وأصوله وتراثه، والانفتاح على العالم لاكتشاف إسهاماته الحضارية، وإبداعاته الفكرية والأدبية، بل باتت منصّة للحصول على وظيفة أو مهنة. أي أن كثيرا ممن يتخرجون أو ينقطعون عن التعليم في هذه المرحلة أو تلك لا يعرفون الفارابي وابن رشد، ولا امرئ القيس وطرفة، ولا أفلاطون وأبي قور ومونتاني، ولكنهم بارعون في استعمال السمارتفون، وتحميل تطبيقاته، وابتكار وسائل متطورة لفك شيفرات القنوات التلفزيونية، والتنصل من دفع معاليم الاشتراك.

هذا الهوس بخلق مهنية مبكرة أدى إلى ترك عناصر التعليم الأساسية، كاللغة والعلوم الطبيعية والتاريخ والجغرافيا والفنون الجميلة. ووقع التركيز في موازاة ذلك على عناصر ظرفية، كتدريس الإنجليزية منذ الأقسام الابتدائية، ليس حبًا في الأدب الإنجليزي أو المسرح الإليزابيثي، بل أملا في أن يضمن التلاميذ مستقبلهم.

ولا تزال المناهج تتغير على ضوء متطلبات السوق، ولا أحد يستطيع أن يتكهن بالمؤهلات المهنية التي ستفرضها سوق الشغل في الأعوام القادمة.

الثقافة العامة

الحق أن الوضع الذي ذكرناه لا تختص به الدول العربية وحدها، بل يشمل حتى بعض البلدان المتقدمة، كفرنسا مثلا. ففي بداية العصر المعلوماتي مطلعَ السبعينات، رأى القائمون على الشأن التربوي في فرنسا ضرورة تعليم طلبة الهندسة برمجة فورتران، وكانت لغةَ المعلوماتية آنذاك، ولكن سرعان ما نابت عنها لغاتٌ برمجية أخرى.

أي أن الخبراء الذين يرغبون في تعليم أطفال اليوم استعمال الراقنة المعلوماتية، قد يُفاجَؤون بتغييرها بوسائط أخرى في الأعوام المقبلة، كتوسّل المستخدم بالصوت في توجيه الآلة والإبحار في الشبكة.

وقد يُفاجَأ الدّاعون إلى تعلم اللغات، الإنجليزية بخاصة، ببرمجيات صوتية مدمجة في الهواتف الجوالة، تجعل ممارسة اللغة لاغية، باستثناء استعمالها لغايات ثقافية.

وقد لاحظ أحد الخبراء الفرنسيين أن الشبان المتخرجين في الهندسة يلاحظون فور التحاقهم بمؤسسة من المؤسسات أن المعارف التي تلقوها في الجامعة أو المعاهد العليا لا تفيدهم في شيء، وأنهم يتمرسون بمهنتهم عندما يواجهون الواقع، يستثنى من ذلك الطلبة الذين تلقوا تكوينا مهنيا.

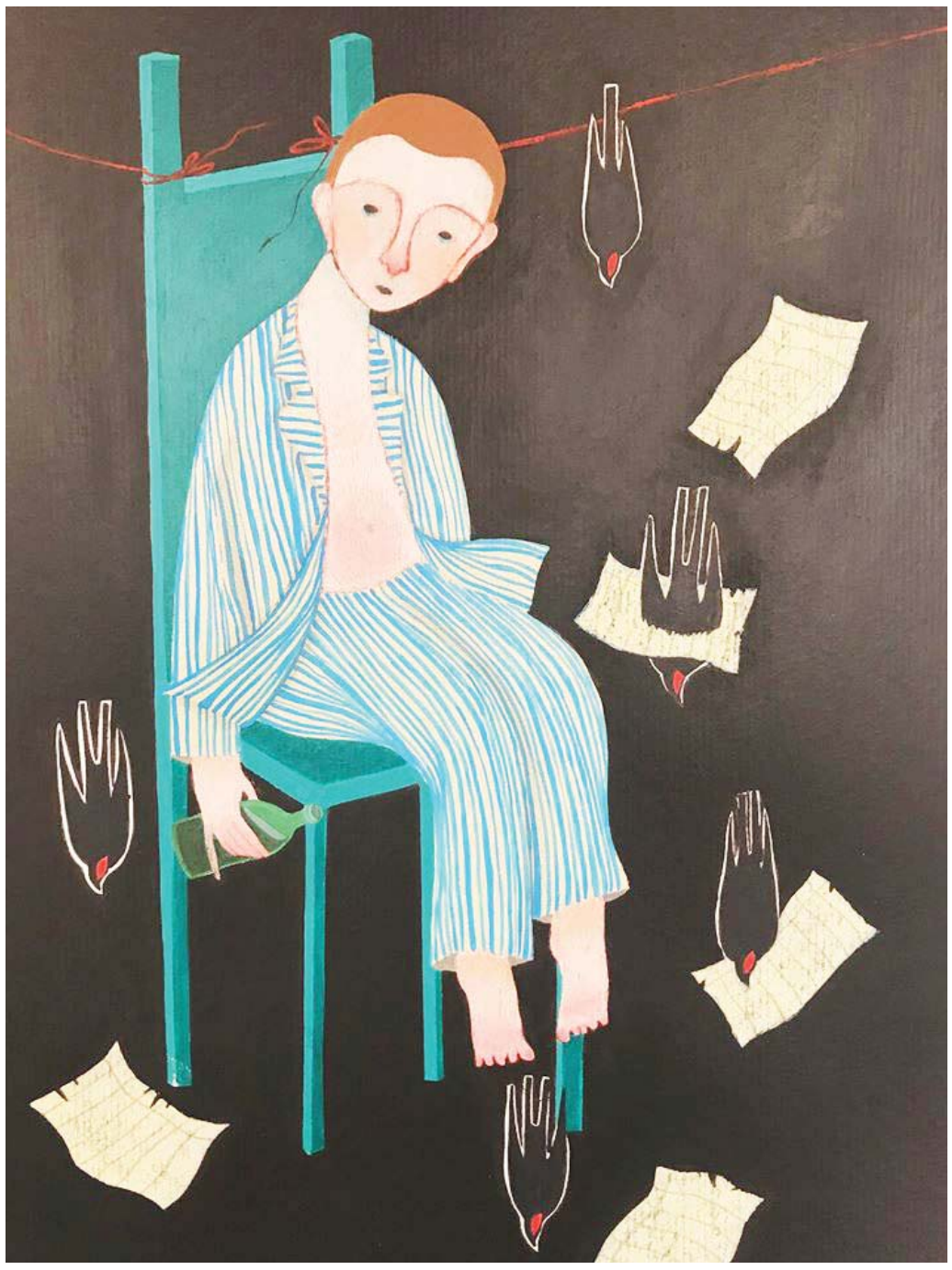

القراءة المعاصرة مختلفة تماما (لوحة للفنانة هيا حلاو)

والإجابة في رأيه بسيطة، وهي أن المؤسسات لا تنتخب منتدبيها حسب معارفهم ولا مهاراتهم، وإنما بحسب الميزات الأصلية التي تشهد بها مسيرتهم المدرسية، وهي ميزات تستند إلى قدرات التلاميذ لا محالة، ولكنها تستند أيضا إلى ثقافتهم العامة. هذه الثقافة العامة، التي تتأتى أساسا من قراءة أمهات الكتب، هي التي أشاد بها الجنرال ديغول في فصل "القيادة" من كتابه "نحو جيش محترف"، إذ كتب يقول "إن مدرسةَ القيادةِ الحقَّ هي الثقافة العامّة. بفضلها يتمكن الفكر من أداء دوره بنظام، ويميز الجوهري من الزائد، ويسمو إلى الدرجة التي تبدو فيها المجموعات خالية من مخاطر الفروق. ما من قائد بارز إلا وكان له ميل إلى التراث وإحساس بالفكر الإنساني. في عمق انتصارات الإسكندر المقدوني نجد دائما أرسطو...".

سعوديان وإماراتي يتأهلون إلى المرحلة التالية من «شاعر المليون»

شارف الموسم التاسع من برنامج "شاعر المليون" على نهايته، وذلك بتنافس الشعراء الواصلين للمرحلة الربع نهائية في أولى حلقاتها، والتي كانت مشوقة في جو التنافس الذي شهدته والقصائد المتنوعة التي قدمها المتسابقون.

أبوظبي – انتظمت أخيرا على مسرح شاطئ الراحة بأبوظبي الأمسية الأولى من المرحلة الثالثة (مرحلة الـ12 شاعرا) ضمن برنامج "شاعر المليون" في موسمه التاسع، وهو البرنامج الذي تنظمه لجنة إدارة المهرجانات والبرامج الثقافية والتراثية بأبوظبي، في إطار استراتيجيتها الثقافية الهادفة لصون التراث وتعزيز الاهتمام بالأدب والشعر النبطي.

وشهدت الأمسية الثالثة عشرة من البرنامج مشاركة 6 شعراء من 3 دول عربية هي السعودية، الكويت والإمارات. حيث كان محبو الشعر النبطي على موعد مع الشعراء أحمد بن جدعان العازمي وعبدالعزيز العبلان الديحاني من الكويت، وراكان بن وليد الراشد وعبدالمجيد سعود الغيداني ومطرب بن دحيم العتيبي من السعودية، ومبارك بالعود العامري من الإمارات.

بداية الحلقة التي تمثل أولى مرحلة الربع النهائي كانت بإعلان المرشح عن الحلقة الماضية بتصويت الجمهور، الذي رشح الشاعر السعودي صالح محمد العنزي إلى مرحلة الـ12 من مسابقة شاعر المليون، بحصوله على 71 في المئة.

واستضافت الحلقة الجديدة الفنان ناصر المنصوري ضيفا، حيث قدم أغاني من ألحان الفنان فايز السعيد وكلمات الشاعر الإماراتي الراحل راشد الخضر. بينما قدم الشعراء الستة أفضل قصائدهم أمام لجنة تحكيم البرنامج المكونة من الأستاذ سلطان العميمي والدكتور غسان الحسن والشاعر حمد السعيد.

وقبيل انطلاق مشاركات الشعراء، وانسجاما مع الظروف الاستثنائية التي تعيشها الإنسانية في مواجهة وباء كورونا، توجهت لجنة تحكيم برنامج شاعر المليون، بلسان الأستاذ العميمي بالدعاء لتوحد القلوب والإنسانية وتكاتف الأمم من كل مكان لمكافحة هذا المرض.

وانطلقت الأمسية مع أول المتنافسين الشاعر أحمد العازمي الذي ألقى قصيدة تتحدث عن حياة البرزخ وما بعد الموت، وقد علقت لجنة التحكيم على القصيدة وكان أولها الدكتور غسان الحسن الذي قال: هذا النص غريب ففيه جدلية واضحة ولا يمكن الجزم بها ومثل هذا الموضوع لا يتيح للشاعر أن يذهب بالخيال إلى أبعد مدى وهو يتحدث عن شيء لا يعرفه وحرمت هذه القصيدة من الموضوع الجيد والتصوير الشعري.

الشاعر الثاني كان راكان بن وليد الراشد، الذي اعتلى مسرح شاطئ الراحة، مُطلقا نصه عن الصداقه، وقد علق عليه عضو لجنة التحكيم الأستاذ سلطان العميمي قائلا إن النص تمت كتابته بأسلوب السهل الممتنع، مشيدا بالقصيدة، ومنوها ببناء النص وطريقة الشاعر المتوازنة في تناول الموضوع .ثالث المتنافسين كان الشاعر عبدالعزيز العبلان الديحاني الذي قدم قصيدة على البحر المسحوب ولاقت إعجاب اللجنة التي قدمت رأيها وكان أول المتحدثين الأستاذ حمد السعيد "لقد أعجبني البحر الذي كتبت عليه القصيدة وهو المسحوب وقلة من الشعراء يستخدمونه، لقد عدت بي إلى ذكريات الزمن الجميل والشعر الجميل فأنت شاعر عذب وقدمت نصا مترابطا وجميلا وفيه تصوير شعري كثيف".

وقدم الشاعر الرابع عبدالمجيد سعود الغيداني نصه عن مواساة النفس ومناجاة الخالق، وقد أشاد به الدكتور غسان الحسن من ناحية الأسلوب والتوظيفات. فقد استخدم الشاعر صورا شعرية محبوكة وتراكما من المفردات والعبارات والصياغات التي تم توظيفها بشكل جميل.

وكان مبارك بالعود العامري خامس شعراء الحلقة الجديدة من البرنامج، حيث قدم قصيدة في غاية الجمال نالت إعجاب اللجنة التي رأت أنها حافلة بتصوير شعري جميل امتاز بالسلاسة والعفوية، خاصة أن الشاعر استخدم اللهجة الإماراتية فكانت عبارات ظاهرة من بيئته وتدل هذه القصيدة على هوية شاعرها بشكل واضح.

الشاعر السادس في أولى أمسيات مرحلة الربع النهائي كان مطرب بن دحيم العتيبي، الذي اعتلى مسرح شاطئ الراحة، مُطلقا نصه الذي تناول فيه ظاهرة التبرع بالأعضاء، وقد علق عليه عضو لجنة التحكيم الأستاذ حمد السعيد، منوها بموضوع النص. وعلق عضو اللجنة الدكتور غسان الحسن، موضحا بأن في الشعر شيئا جديدا من خلال تناول ظاهرة التبرع بالأعضاء والتشجيع عليها. أما العميمي، فقد أشار إلى أن الشاعر ركز على موضوع إنساني مفصلي، متنقلا بين العديد من أبيات القصيدة وإشراقاتها، مشيدا بالتصاوير الشعرية في النص، منوها بأن القصيدة لا تخلو من الغموض.

> الحلقة شهدت تنافسا كبيرا وتميزت القصائد فيها بطرافة مواضيعها ما جعل لجنة التحكيم تشيد بها وبشعرائها

وختاما للأمسية، وبعد تقرير سريع استعراضي لمجريات الحلقة والمشاركات المتميزة للشعراء بين الحماسة الإماراتية والنخوة الكويتية والتفرد السعودي بموضوعات شعرية، جاء قرار لجنة التحكيم بتأهيل الشاعرين عبدالمجيد سعود الغيلاني ومبارك بالعود العامري بنتيجة 47 من 50 لكل منهما، بينما جاءت نتائج الشعراء الأربعة الذين سينتظرون تصويت المشاهدين والمتابعين من خلال موقع وتطبيق شاعر المليون طوال أسبوع كامل، على النحو التالي: 45/50 لكل من عبدالعزيز العبلان الديحاني ومطرب بن دحيم العتيبي، و42/50 لكل من أحمد بن جدعان العازمي وراكان بن وليد الراشد.

الاقتراب من اللقب